

قصة الادارسة أول دولة اسلامية مغربية

وقصة الادارسة هي قصة أول دولة اسلامية مغربية تأسست مستقلة عن الخلافة في الشرق..

إنها قصة مليئة بالعبر والكفاح والمثابرة والمؤامرة والبطولة.. وتتبعها من أولها يتطلب الرجوع إلى الوراء ١٢٠٠ سنة.. وبالتحديد إلى عام ١٧٠ هـ.

عندما يصبح التابع سيداً

ففي أحد أيام ذلك العام، كان رجلان يسيران فوق أحجار جبال زرهون بالمغرب الأوسط...

كان أحدهما من آل بيت النبي، ويدعى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. والآخر كان تابعه ووليه، راشد..

ولكن مظهرهما لم يكن ينم عن هذا الفارق أبداً! فادريس كان يرتدي مدرعة صوفية خشنة، وقد وضع على رأسه عمامة غليظة، وهو يسير كالخادم لعبده راشد، ذلك الذي كان يأمره وينهاه أمام الناس كأنه هو السيد المطاع!!

كان راشد هذا من المخلصين لأهل البيت، ومن أهل النجدة والشجاعة والقوة والعقل، فعمد إلى خدعة، هي أن يستبدل ملابس سيده بملابسه فظهر كأنه هو السيد، وظهر ادريس كأنه التابع، وذلك خوفاً على حياة مولاه، وحيطة له..

لقد كانا يهربان من القدر القاسي المكتوب الذي ابتلى به أبناء علي رضي الله عنه..

"النفس الزكية" يثور على المنصور

كان ادريس هو أصغر أشقاء محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان لا يفتأ يطالب بالخلافة حتى بايعه أهل البيت في المدينة بعد أن آلت أمور بني أمية إلى احتلال.

وفي عام ١٥٤ هـ. قام الامام محمد، وكانوا يلقبونه بـ "النفس الزكية" لنسكه وكثرة عبادته وزهده وعلمه وفضله، قام ينكر على أبي جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، جوره وعسفه.. فأرسل له المنصور جيشاً عظيماً إلى المدينة، وهزمه وقبض على الكثير من جماعته.. واستطاع محمد "النفس الزكية" أن يلتجئ إلى بلاد النوبة، ليعود ثانية إلى مكة داعياً الناس إلى بيعته. وبعث بأخوته إلى الممالك المجاورة فبايعه خلق كثير. ولما قويت شوكته بمكة خرج إلى لقاء جيش أبي جعفر المنصور، بموضع يعرف بفخ على بعد ستة أميال من مكة، وبعد قتال عنيف، وحرب طحون، دارت الدائرة على الامام محمد وقتل في المعركة مع بعض أشقائه وعدد هائل من جنوده..

حالة الطوارئ

ونجا شقيقه الأصغر ادريس من الموت فقرر الهرب إلى المغرب الأقصى ومعه تابعه راشد هذا..

وبدأ رحلتها من مكة فوصلا القاهرة حيث سمعا بالأوامر الصارمة بالبحث عنهما والقبض عليهما.. وشاهدا العيون المبتوثة على الطرقات وفي أطراف البلاد، حتى لم يكن باستطاعة أحد أن يمر من البوابات إلا بعد أن يثبت هويته، ومن أين قدم وإلى أين يسير؟! وبالرغم من هذه القيود الشديدة استطاعا دخول القاهرة.. وفي يوم، بينما وقفا يتأملان نقوش دار حسنة البناء، فخرج صاحب الدار فشكَّ فيهما. فقال راشد:

- أن أخبرناك من نحن، فهل تستر علينا؟..

قال: "نعم.. ورب الكعبة أكنم أمركما، وأصون سركما، وأبذل جهدي في اصلاح حالكما.."

وبعد أن عرفاه بأنفسهما ومقصدتهما استضافهما وأكرمهما.. ولكن خبرهما اتصل بعامل مصر، علي بن سليمان الهاشمي، فأرسل لصاحب الدار يقول له: "قد رُفِعَ إلي خبر الرجلين اللذين هما عندك في منزلك متخفين، وإني أكره أن أتعرض لدماء أهل البيت أو أن يناهض أذى بسبي، فلك الأمان ولهما، وقد آجلكم في الخروج ثلاثة أيام".

لقاء في برقة

واشترى صاحب الدار راحلتين، ولنفسه ثلاثة. وصنع لضييفه زاداً يبلغان به أفريقيا، فهكذا كانت تسمى تونس.. ومن أجل سلامتهما سافر راشد من طريق وسافر ادريس مع صاحب الدار من طريق آخر، حتى بلغا برقة في ليبيا، فقعدا بها حتى لحقهما راشد، فعاد صاحب الدار وجدد لهما زادهما، وودعهما وانصرف عائداً إلى بلاده ثانية.. وسار ادريس مع راشد فأقاما في القيروان مدة، ثم خرجا للمغرب الأقصى، فوصلا طنجة فأقاما بها أياما ارتحلا بعدها.

القبائل تباع ادريس

ثم اقترب ادريس مع مولاه راشد من مدينة ولى فدخلها.. وهي قرية كبيرة محاطة بسور، بجانب اطلال مدينة فيولوبوليس الرومانية الأثرية.

ولم تكن هذه المنطقة قد شهدت من قبل أحداً من آل بيت رسول الله، لهذا استقبل اديس ومولاه راشد، بالترحيب والتكريم، واستضافهما اسحاق عبد الحميد، أمير قبائل أوربة مدة ستة شهور..

وفي رمضان ١٧٢ هـ. وقف عبد الحميد وسط اخوانه ورجال قبيلته فعرفهم بنسب ادريس وفضله وعلمه وقربته من الرسول (ص).

فقالوا له: "الحمد لله الذي أتانا وشرفنا بجواره، فهو سيدنا ونحن عبيده، نموت بين يديه، فما تريد منا؟"

قال: "تباعونه"

قالوا: "سمعاً وطاعة، ما منا من يتوقف عن بيعته وما يريد"

وكان أول من بايعه رجال قبيلة أوربة، وكانت يومئذ من أقوى وأعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عدداً، وتلتها في البيعة قبائل مغيلة، وصدينة، وزناتة وزواعة وزواوة، معظم البربر بالمغرب الأقصى، بايعوه ودخلوا في طاعته، حتى استتب أمره، وقويت شوكته.. وتمكن سلطانه، وعظم جيشه.. فخرج فاتحاً ناشراً كلمة الاسلام بين القبائل البربرية في المدن والمعازل والحصون والجبال المنيع الممتدة من ساحل المحيط الأطلسي حتى مدينة تلمسان التي افتتحها ادريس سليماً دون قتال، فبنى مسجدها الكبير وكتب اسمه على منبرها..

فاتح المغرب

ثم عاد إلى مدينة ويلي قاعدة ملكه.. وأحلت حركته هذه الاسلام محل الوثنية والمسيحية واليهودية في المغرب، وقضت على القلاقل والاضطرابات والحروب بين القبائل.... تتميز مدينة ويلي (زرهون حالياً) بهذه القبة الدائرية المكسوة بالمقاشاني.. ولذلك لقبوا ادريس بأنه: فاتح المغرب.. وأن كان كان المغرب قد فتح قبله بما يزيد على قرن من الزمان.

مكر ودهاء

وجلس ادريس مع جيشه في مدينته ليستريح.. ولكن في بغداد على بعد آلاف الكيلو مترات، كان هارون الرشيد الخليفة الكبير يتحرق غضباً.. لقد بلغته أخبار انتصارات ادريس ومتابعة القبائل له، وكثرة جنوده وشدته في الحرب، وعزمه على غزو افريقيا، فاغتم الرشيد لذلك غماً شديداً، وقال لوزيره يحيى بن برمك: "لقد فتح ادريس مدينة تلمسان وهي باب أفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار!! وقد عزمت أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله، ثم أي فكرت في طول المسافة على الجيوش لتصل من العراق إلى المغرب فرجعت عن ذلك، فأشر إلي برأيك فيه؟" فقال الوزير: "يا أمير المؤمنين من الرأي أن تبعث إليه برجل ذي حزم ومكر ودهاء، ولسان واقدام، فيقتله وتستريح منه".

فقال الرشيد: "الرأي ما ذكرت، من يكون الرجل؟" فقال الوزير: "أعرف رجلاً اسمه سلمان بن جرير، يعرف بالشماخ، من أهل الحزم والفتك، والعلم بالجدل والكلام، والمكر والدهاء.."

الشماخ يستأثر بعطف ادريس

وسافر "الشماخ" مزوداً بالمال والوعد بالمرتلة السامية إذا نجح في مهمته. وانتحل الشماخ الطب مهنة، وجد في السير حتى وصل إلى المغرب، فقدم على ادريس، وأخبره أنه أتاه لخدمته، لأجل محبته وولايته لأهل البيت. الخ. وأنس به ادريس، وسر به سروراً

عظيماً، وحل من قلبه مترلة رفيعة، فكان لا يقعد ولا يأكل إلا ومعه "الشماخ" يأنس إليه ويسري عنه في وحدته وغربته، فضلاً عما أظهره "الشماخ" من نبل، وأدب، وظرف، وبلاغة، جعلت ادريس في لهفة دائمة عليه.

عندما تضحك الأقدار..

وظل "الشماخ" جالساً يتحين الفرص لقتل "ادريس"، دون أن يجد لذلك سبيلاً.. إذ كان راشد لا يزال موالاه ولا يفارقه أبداً.. ولكن الأقدار أرادت أن يتغيب راشد في يوم ما لبعض شؤونه.. وانتهاز "الشماخ" الفرصة فجلس بين يدي ادريس، على عادته، فتحدث إليه، ثم قاله له: "يا سيدي جعلت فداك أني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها، ثم أتي رأيت هذه البلاد ليس بها طيب، فخذها تطيب بها، فقد آثرتك على نفسي، وهو بعض ما يجب لك علي". فأخذ ادريس القارورة ففتحها وشمها، فلما رأى شامخ ذلك أظهر كأنه يريد قضاء حاجة، فسار إلى مترله وركب فرساً من عتاق الخيل، كان قد أعدها لتلك الساعة، وخرج من مدينة وليلي طالباً النجاة..

جهد ضائع

أما ادريس فعندما استنشق الطيب من القارورة المسمومة، صعد السم في خيشومه وانتهى إلى دماغه، فغشي عليه وسقط على وجهه، لا يعلم أحد ما به وما أصابه.. وجاء راشد.

راشد يلحق بالشماخ

وحاولوا انقاذ ادريس ولكن جهودهم ذهبت هباء، إذ توفي في المساء من يوم أول ربيع الآخر عام ١٧٧ هـ.

وبحث راشد عن الشماخ فلم يجده، فأدرك أنه هو الذي سم موالاه، فأسرع خلفه في مع معه البربر على ظهور الخيل، ولكنها كلها تقطعت في الطريق، فلم يلحق به إلا راشد وحده. فشد عليه السيف وقطع يده اليمنى، وشجّه في رأسه ثلاث شجّات وجرحه في مواضع من جسمه.. ولكن "الشماخ" استطاع النجاة عندما سقطت فرس راشد أعياء..

ادريس بن ادريس!

ولم يترك ادريس ولداً إلا أنه ترك جارية بربرية اسمها كتر، حاملاً منه في شهرها السابع. وصبر القوم عليها شهرين حتى وضعت طفلها، فحمله راشد إلى رؤساء البربر، الذين قالوا: "هذا هو ادريس بعينه، وكأنه لم يمت!" فسماه راشد باسم أبيه ادريس.. وقام بأمره، وأمر البربر فنشأه أحسن تنشئة، وأدبه أحسن أدب، وأقرأه القرآن وله من العمر ثمان سنين، وعلمه السنة والفقه، والنحو والتحديث، والشعر وأمثال العرب وسير ملوكها وساستها، ودربه على ركوب الخيل ومكايد الحروب والرمي بالسهام.

مقتل راشد

وعندما بلغ ادريس الحادية عشرة من عمره عزم راشد على أخذ البيعة له من قبائل المغرب، فاتصل الخبر بابراهيم بن الأغلب عامل افريقية (تونس)، فدس أموالاً كثيرة إلى خدام راشد من البربر، فاستهواهم بها، فقتلوا راشد في عام ١٨٨ هـ. وكتب ابن الأغلب للرشيد يقول:

ألم ترني بالكيـد أرديت راشداً وإني بأخرى لابن ادريس راصداً؟

غير أن القبائل بايعت ادريس اماماً بعد عشرين يوماً من مقتل راشد. وفي رواية أخرى يقال أن ادريس الصغير قد بوع اماماً قبل مقتل راشد بأيام... ومهما يكن من شيء فقد بوع ادريس وأصبح اماماً وهو في سن الحادية عشرة فصعد المنبر وخطب الناس في ذاك اليوم وقال في ختام خطبته:

".. أنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر، وللمسيء الوزير، ونحن - والحمد لله - على قصد جميل، فلا تمدوا الاعناق إلى غيرنا، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا" فاندش الناس من فصاحته ونبله وقوة جأشه على صغر سنه..

ازدحام المدينة

وبعد أن توطد سلطانه وزاد عدد جنوده وأتباعه، وعظمت جيوشه وأشياعه بعد أن انضم إليهم فرسان العرب من أفريقية والأندلس، وقصد إليه الناس من كل مكان، ضاقت وليلي بهذه الجموع، فرغب ادريس في بناء مدينة جديدة، فشرع في بنائها عند سفح جبل زالغ، غير أن سيلاً أتى من أعلى سفح الجبل فهدم جميع ما بناه!

وخرج وزيره يبحث عن موقع آخر مناسب للمدينة فرأى مجموعة عيون ماء كثيرة تزيد على الستين، حولها المزارع والأشجار، فتبع مجرى الماء حتى وصل إلى موضع بين جبلين في خيام من شعر تسكنها قبائل زناتة.. فشرب من ذلك الماء فاستطابه، واستحسن طيب تربة الأرض واعتدال هوائها.. فرجع إلى ادريس فوافق على الموقع ودفع للقبائل ستة آلاف درهم ثمناً لأرضهم، وشرع في بناء مدينة عام ١٩٢ هـ.

الناس ومدينة فاس

وكان ادريس رضي الله عنه، يعمل فيها بيديه مع الصناع والفعلة والبنائين. وصنعوا له فاساً من ذهب وفضة، فكان ادريس يمسكه بيديه ويتدب به الحفر ويختط به الأساس للفعلة، فكان الفعلة يقولون: هاتوا الفاس... خذوا الفاس.. احفروا بالفاس... فسميت المدينة "فاس" لأجل ذلك.. هكذا قالوا. وهناك قصص أخرى تدور حول أصل التسمية، التي تختلف فيها الناس.

حبة العنب هي السبب

وخرج ادريس بعد هذا غازياً وفتحاً لبلاد المصامدة (السوس حالياً) فاستولى عليها.. ثم اتجه إلى تلمسان وجلس فيها ثلاثة أعوام، أصلح خلالها أمورها ومسجدها وسورها وحصنها ثم صالح ابن الأغلب، فصفاه له الملك، فاقعد أريكته في فاس ساكناً وادعا حتى بلغ من العمر ثمانين وثلاثين سنة.

وبينما هو يأكل عنباً، شرق بحبة منه، مات من حينه هكذا قالوا، وذلك في ثاني جمادى الآخر عام ٢١٣ هـ، بد أن حكم ٢٦ عاماً، مخلفاً من الأولاد اثني عشر ذكراً. واختلف المؤرخون في موقع قبره فقال الكثيرون أنه دفن إلى جانب قبر أبيه في ويلي.. وقال البعض: .. بل دفن في مسجده بإزاء الحائط الشرقي بفاس.. وهذا ما يقوله ابن أبي زرع مؤلف كتاب: "روض القرطاس في أخبار مدينة فاس" الذي يعتبر من أشهر كتاب في تاريخ المغرب. إذ عليه اعتمد معظم كتاب التاريخ في العصور الغابرة، والعصور الحاضرة...!

